قوس قزح

في فضل

التجربة والإبداع



خيري الذهبي

قال وكان متحمساً كثيراً لما يقول: لا إبداع بدون تجربة. الإبداع الحقيقي لن يتم إلا لرجل التجربة، رجل الفعل الرجل الغارق حتى الأذقان في معاركة الحياة ومقاساتها. هذا الرجل المنغمس تماماً في الحياة وصدماتها، وأفراحها، وانكساراتها، إنه الواحد الوحيد القادر على تقديم أجمل ما لدى الإنسان.

كان كلاماً ما يزال مشوباً ببعض الرومانسية التي جعلت البعض يعتقد أنه عبر ديوان شعر، أو وضع رواية قادر على إسقاط حكم ظالم وتقريب يوم المجتمع العادل. فكرت بالأمر، ناقشته داخلياً، ثم هتفت: يا إلهي. هذا مخالف تماماً لكل حركة التاريخ الأدبية. إن أعظم النصوص التي عاشت وصمدت، واستمرت لتكون المشعل الذي يضيء حياتنا الكابية لم يكتبها كاتب ملتزم برأي مجموعة، أو برأي سياسي أو فكري ما إن أعظم النصوص التي صمدت أمام غربال التاريخ هي النصوص التي كتبها مبدع يقف على جانب طريق التاريخ يرى، ويتأمل، وينتقد، والأهم هو أن ينتقد. أي أنه الضمير المحاسب لما يجري، والقادر على انتقاده، وليس أبداً مقدم التهليلات والتبشيرات والحلول.

عدت إلى التاريخ، فذكرت المنغمسين حقاً في التجربة. ولنبدأ بالفلاح، الفلاح الغارق في العمل الشاق الأسود اليومي بادئاً صباحه حاملاً رفشه ومعزقته، ثم منغمساً في صنع أهم إنجاز يعيشه الإنسان ألا وهو خبزه اليومي، هذا الفلاح العظيم المضحي بكل بهجة يومية وحياتية سعياً وراء تقديم الخبز. هذا الفلاح هل استطاع يوماً أن يقدم بيت شعر، أو قصة أو ملحمة، أو مسرحية. إن انغماسه الكامل في اليومي، في الإنجاز، في الصنع لا يترك له لحظة تأمل محايدة يستطيع أن يرى فيها ما أنجز ليقول عنه القول الجميل.

وعلى العكس رأينا دائماً أن من لم ينغمس في التجربة، أي تجربة، بل من كان الواقف جانباً يتأمل دون أن يغرق في اليومي والمجهد هو من قال أجمل القول وأعذبه، ولنتذكر معاً الراعي،هذا الرجل الذي يسوق حيواناته إلى المرعى، يطلقها تعيش حياتها، ثم ينعزل عازفاً على نايه أو متأملاً العالم والوجود والحياة والأفراح والعشق والعشاق، بل متأملاً حتى الفلاح الغارق في طين تجربته. هذا الراعي هو من قدّم دائماً وأبداً أجمل القول، وأرقه، وأفضله. ليس هذا فحسب، بل لو طورنا الأمر مزيداً من التطوير، وسألنا من قدّم أعظم الرؤى والحلول لمشاكل البشرية القديمة. ألم يكن الراعي، وأعني المفارق المعتزل المتأمل، هل سمعنا أصلاً عن نبي كان فلاحاً، وأعني بالفلاح ها هنا المنغمس في العمل الأسود حتى الأذقان، ذلك الذي لا تترك له التجربة فضل وقت يتأمل ويرى ويحلم، ويقول، أم أن معظم إن لم يكن كل أنبياء البشرية كانوا رعاة، أي معتزلين، مفارقين لليومي، فاستطاعوا التأمل والحلم.

فإذا ما انتقلنا إلى الحياة المعاصرة، واستعرضنا المبدعين لم نجد مبدعاً واحدا أبدع، أو حلم، أو قال و هو منغمس في تجربته. قد نجد بعضاً منهم يبدع بعد التقاعد، أو الانفصال عن التجربة، قد نجد بعضاً منهم، وقد حانت له فرصة اعتزال، فاعتزل وتذكر، وتأمل ما صنع عن بعد، فيقول بعض القول.

لكن الأهم منهم دائماً كان المفارق المعتزل المتأمل لما يصنع المنغمسون. هل كان دويستويفسكي منغمسا في تجربة اللص حين كتب الجريمة والعقاب، أو في تجربة الشك والقتل حين كتب الإخوة كارامازوف؟ هل كان منغمساً في أية تجربة. هل كان مساهماً حين كتب في أي عمل أسود يستهلك فضل قوته، ويستغرق جهده وروحه، هل كان بلزاك فخر الرواية الفرنسية غارقا في تفاصيل التجربة حين كتب الكوميديا الإنسانية بكل تفصيلاتها، أم أنه كان المفارق المتأمل ما يصنع المنغمسون الغارقون في ثناياها وخلافاتها، فرأى وحكم، و....كتب.

وأخيرا لدينا المثال الأكثر تطرفا مارسيل بروست هذا الذي كان يخاف الناس، ويخاف تلوث أصابعه بعرق الناس، والذي اعتزل الناس في غرفة مغلّفة بالفلين، فلا يسمعهم ولا يراهم، ولايتلوث بهم. وحين حقق حلم العزلة كتب رائعته، فخر الأدب الفرنسي (البحث عن الزمن الضائع).

وأخيرا لدينا الشاعر الأعمى الذي كتب ملحمتي القتل والقتال، الإلياذة والأوديسة. هل نستطيع تصوره وهو الأعمى منغمسا في الحرب وتجربة القتال.... مؤلف ملحمة تغريبة بني هلال. هل كان من بني هلال أصلا، أو رآهم، أو التقاهم. مؤلف سيرة الملك الظاهر. هل عرف الملك الظاهر، أو عاصره، أم أنه كتب ما كتب بعد زمان الحدث ربما بقرون.

تاريخ الأدب سوف يقول: بل من الأفضل أن نتأمل تجربة بني الإنسان مفارقين باردين حتى نستطيع النقد وقول أحسن القول.